شعوب سورية

وآثارها القديمة [1]

عنيت الامم منذ القديم بالفنون الجميلة وخاصةً منهـا الصنائع وكان حظ كل أُمة من هذا الشأن بحسب رقيها وحضارتها وكان الملوك والعظماء يجمعون آثار مشاهير فناني العالم ويتنافسون باقتنائها لا لغاية علمية بل للزينة والتفاخر ودام هذا حالهم حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر للميلاد لما ظهر كتاب تاريخ الفن عند الاقدمين لمؤلفه (Winckelmann) الألماني وهو اول من وضع أُسس هذا العلم الحديث علم الآثار القـديمة ومنذ ذاك اليوم أصبحت المجموعات الأثرية مكتبةً يرجع اليهـا بعد ما كانت من جملة المتاع تزين بها القصور .

لم يقتصر التجدد في عصرنا هذا على العلوم والفنون فقط بل تعداه الى التاريخ ونهج المشتغلون به نهجًا جديداً . فقد كان التاريخ فيما مضى كتاب أدب يجمع بين الاخبار والفكاهات ويدس فيه حوادث ما أنزل الله بها من سلطان رغبةً في تأييد مبدإ او خدمة حاكم حتى أصبح الكثيرون يشكّون بصحة ماورد في أكثر هذه الكتب ولطالما قرأنا روايتين أو أكثر لحـادث واحد تختلف الواحدة عن الأُخرى اختلافًا كبيراً حتى أصبح التاريخ القديم في ارتباك عظيم .

ان مؤرخي العرب هم اول من أدرك وبال هذا المنهج العقيم لما عانوه من المشاق في استنتاج الحقائق من المصادر التي دوّنها الأقدمون وحضوا الكتاب على أمانة النقل حرصاً

(١) المحاضرة التي القاها الامير جعفر الحسني في ردهة المجمع العلمي في ٩ شباط سنة ١٩٢٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على الفائدة ولإدراك الغاية التي وضع التاريخ من أجلها ، فليس هو مضماراً تتبارى فيه قرائح الشعراء أو تخدم بواسطته الاهواء . ولذلك نرى مؤرخي العرب مثل الطبري وابي الفرج وابن الأثير وابن خلدون وابن عساكر وغيرهم قد نهجوا منهجاً جديداً في تدوين الحوادث والأخبار حتى أصبحت مصنفاتهم من مفاخر الحضارة العربية لما امتازوا به من الضبط والدقة والصدق في إيراد الأخبار وياحبذا لو اتصلت سلسلة تلك التواريخ العربية حتى يومنا هذا . وقد توسع علماء الغرب بالضبط والدقة منذ ظهور الطباعة وانتشارها في العالم حتى انه لا يُقدم احدهم على سرد حادث دون ان يؤيده بادلة راهنة او الإشارة الى المصادر والمآخذ مع تعيين الصفحة والسطر واذا لم يتوصل الى معرفة أمر أقر بعجزه بكل صراحة دون ان يرى بذلك مايحط من قدره ولا يستنكره عليه احد . ولما لم يجد علماء التاريخ في التآليف القديمة مايفي بحاجتهم وضاقت بهم سبل الهداية لمعرفة الماضي عمد بعضهم الى بطن الارض يستنطقون دفائنها ويستضيئون بقبس كنوزها . وأُطلق على هذه الفئة اسم علماء الآثار لانهم يعتمدون على الآثار دون سواها .

ان علم الآثار القديمة فرع من فروع التاريخ ومن اصعبها مراساً اذ يحتاج صاحبه الى انتباه قوي وذوق سليم فان هذا العلم لا يقتصر فيه فقط على جمع الآثار القديمة في المتاحف ووصفها بل الصعوبة كل الصعوبة في حل رموزها وفهم كنهها واستجواب تلك الشهود الصامتة واستنتاج الحقائق منها وقد قال Volney ما ترجمته » ان مهمتنا أصعب من مهمة علماء الطبيعيات لأننا لا نشتغل مثلهم باجرام ملموسة أو بحوادث واضحة للحواس بل نعمل كهيئة تحقيق لديها حوادث أدبية غائبة وربما كانت مختلقة نقلها الينا بعض شهود عيان أو اتصلت بهم أخبارها من الرواة ويتكلم هؤلاء المحدثون لغات مختلفة قد تلاشت فيتطلب منا تعلمها وهي العثرة الاولى في بدء الامر وقد نخطئ بترجمتها . ثم يجب علينا البحث عن الحوادث أو الوقائع المبعثرة التي تؤيدها وتكون هذه غالباً محرفة بتناقلها من فم الى فم ويتطلب منا بعده مقابلة هذه الروايات والتثبت من أخلاق محدثيها وصدق تحقيقهم ويكون التناقض في بعض الحوادث واضحاً فينشأ عنه صعوبات لا مخرج منها اه) .

وقد أصبح النظر اليوم في أبحاث علماء الآثار وتحقيقاتهم من الواجب على كل مؤرخ ومحقق كما يستنير بها كل لغوي ومفسر . فكم معضلة تاريخية ولغوية حسمت بفضل هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العلم . وكم من حوادث جاءت في كتب السلف بل وفي الكتب المنزلة فذهب الناس في تأويلها وشك بعضهم في صحتها ولولا علم الآثار الذي أماط عنها اللثام وأظهرها للعيان ملموسة محسوسة لقالوا عنها أساطير الاولين . أليس أشور والكلدان ومصر وفارس ويونان شهود عدل على جهود الذين اكتشفوا آثار تلك البلاد وبعثوا ذكرهم بعد ان كانوا نسياً منسياً الوفاً من السنين ..

لم يدوّن الأقدمون غير النذر اليسير الذي وصلهم من أخبار الشعوب القديمة وأغفلوا ذكر اكثر الأمم البائدة التي ذهبت أخبارهم بزوال أصحابها ولو اكتفينا بهذه النصوص المشوهة لما كنا أوفر حظاً ممن تقدمنا بمعرفة أخبار السلف . وبفضل هذا العلم نعرف اليوم أكثر أخبار هذه الامم كما نعرف حوادث الامم في القرون الوسطى . وقد توصلوا الى معرفة ما كان عليه الانسان قبل عشرات الالوف من السنين يوم كانت الارض وطاءه وأديم السماء غطاءه يقتات بالنبات ويفترس الوحوش مع اننا نجهل اليوم ونحن في القرن العشرين كثيراً من عقائد بعض الشعوب المعاصرة وعاداتها ممن تقطن مجاهل إفريقية وسواها من القارات الخمس ، ومن الانصاف ان لا ننكر فضل من نقلوا الينا أخبار السلف لان هذا الشيء اليسير هو الذي أثار في فئة من الناس حب الاستطلاع فدفعهم في هذا السبيل . وكانت هذه النصوص على علاتها نوراً يستضاء به ومرجعاً يستأنس به . وعلماء الآثار أصدق الناس في هذه الروايات وان كان لا ينكرون وقوعها فهم لا يجزمون بصحتها الا متى عثروا على دليل من ذلك العصر يؤيدها . ولأبحاث علماء الآثار ميزة جديرة بالاعتبار فهي في أكثر الأحايين تكون منزهة عن الأغراض والغايات والأهواء . وقد يخطيء الأثري في استنتاجه ولكنه لا يتعمد تشويه الحقائق لان همه الوحيد ان يحيي الماضي البعيد ويجعل المعاصرين كأنهم يعيشون في ذلك العصر وذلك المحيط . ومن منا لا يشعر بمثل هذا الشعور عندما يزور متحفاً أو معبداً أو أطلالاً قديمة . وكيف يمكنه ان ينكر الحقيقة ولسان حال هاته الأمم البائدة تقول :

ان آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

لقي هذا العلم الحديث اقبالاً عظيماً في بلاد الغرب فعنيت حكوماتها به وأرصدت للمشتغلين به أموالاً طائلة ، وأنشأت له المدارس والمجامع العلمية أسوة ببقية العلوم وقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أبدت هذه الفئة فئة الاثريين رغم قلة عددها نشاطاً عظيماً ووضعت في مدة قصيرة كثيراً من المؤلفات القيمة المفيدة وأحيت كثيراً من اللغات القديمة المندرسة وحلت رموزها . وقد نال الشام قسطاً وافر من هذه الأبحاث فهي اولى بقعة اتجهت نحوها الانظار وخصوصاً فلسطين لمكانة الشعوب التي استوطنتها منذ الزمن الأطول وأهمها الشعب الاسرائيلي وعلاقة الامم الغربية بكتابهم المقدس . فقد أوفدت اكثر حكومات الغرب بعثات علمية للتنقيب عن آثار سورية واول بعثة رسمية وطئت بلاد الشام هي البعثة الافرنسية التي رافقت الحملة الافرنسية في سنة ١٨٦٠ .

يقسم التاريخ القديم في سورية كما في غيرها من البلدان الى عهدين واضحين الاول عهد ما قبل التاريخ والثاني العهد التاريخي .

فالعهد الاول هو عصر الظران اوالطور الحجري ويقسم الى قسمين احدهما حقبة الحجر المنحوت (Paléolithique) والآخر حقبة الحجر المصقول (Néolithique) وهو احدث من القسم الاول وتختلف مدة هذا العهد بحسب الامكنة . وليس هذا العهد تاريخ حياة البشرية بل هي مرحلة من تقدم الجماعات الفكري والمادي وقد اختلف العلماء بتحديد اقدم تاريخ لهذا العهد فمنهم من يقول من (١٠٠ الى ٢٠٠٠٠) سنة ومنهم من يقول من (٦ الى ٨٠٠٠) سنة . تعتمد الفئة الأولى على تكوين طبقات الارض والهواء وتعتمد الثانية على نظريات دينية تأييداً لما جاء في التوراة عن تاريخ الخليقة فلا يمكننا ان نهمل نظريات علم طبقات الارض وقد ثبت ان طبقة الارض كانت منذ مئات الوف من السنين صالحة لحياة البشر كما انه لايمكننا الاالتسليم بماجاء في الكتب المنزلة . (وهنا يبدأ دور علم الآثار عسى ان يوفق بين النظريتين والعلم لا ينافي الدين .)

لقد ثبت حتى الآن ان الانسان لم يكن منتشراً في اكثر انحاء الارض كما هو اليوم لأنها لم تكن جميعها صالحة لسكنى الانسان الاول فكان يكسو الجليد المرتفعات وتغمر المياه السهول ما خلا بعض السواحل والهضاب في القارات الخمس حيث أوى اليها الانسان . منها سيبريا والقفقاس وجزيرة العرب فكانت تمتاز هذه الاصقاع عن غيرها باعتدال هوائها وخصب ارضها ووفرة دواجنها وكانت سيبريا والقفقاس مأهولتين بجماعات الآريين وجزيرة العرب بجماعات الساميين ودام هذا الحال حتى طرأ على الارض بعض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الطواريء الجوية فتقدم الجليد من شمال اوروبا حتى جنوبها فاشتد البرد وكثرت الامطار وارتفعت المياه فغمر الطوفان معظم السهول فهلك خلق كثير من البشر فتفرق من بقي من هذه الجماعات فراراً من الموت تلتمس ارضاً تقيها من الخطر فنزح قسم من سكان سيبريا والقفقاس نحو الجنوب فوصل جماعات منهم الى سورية وكانت سهول سورية يومئذ مغمورة بالماء الا قليلاً منها وبقيت سورية زمناً طويلاً مأهولة بجماعات الآريين ثم حدث في اثناء اقامتهم بعض الزلازل وتقلص في القشرة الارضية . فجاءت هذه النقمة نعمةً على سورية اذ انشقت الجبال وانفتحت الوديان فتسربت منها المياه للبحار واتخذت الأنهر لها مجاري ثابتة فجفت الارض واصبحت سورية قابلةً للسكنى .

وقد وصلتنا اخبار هؤلاء القوم من آثارهم التي خلفوها لنا في الكهوف التي سكنوها ومما اودعوه من مصنوعاتهم قبور موتاهم . وثبت أن اشكال ذلك الانسان الصياد لا تختلف عن انسان اليوم وهذا يبطل ما علق في بعض الاذهان من أن الانسان القديم يفوقنا بكبر جسده مع انه كان معتدل القامة يسكن الكهوف الطبيعية ويلبس الجلود ويقتات من النبات والصيد فبقي زمناً طويلاً يجهل المعادن . واحتياجاته محدودة جداً لا تتعدى قطع الظران والصوان التي تشبه رؤوس الحراب والسكاكين والمناشير والفؤوس كان يستعملها للدفاع عن نفسه وللصيد ثم تدرج في الرقي فتغلب على الحجر فصار يصقله ثم استخدم العظم فنقشه ثم اكتشف صنع الخزف وهو اول ابتكار صناعي عرفه الانسان . وتشبه قبور هؤلاء القوم وصناعاتهم صناعات معاصريهم او اسلافهم في غيرها من البلدان في القارات الخمس وهذا ما يؤيد هجرة الانسان وتنقل هؤلاء الجماعات عقب الطواريء التي فاجئت الارض وغيرت اوضاعها الجغرافية . وقد حلت في جزيرة العرب طواريء طبيعية عقب التي حلت في سورية بزمن طويل قاسى اهلها الشدائد من جدب الارض وقلة الامطار فنزحت جماعات الساميين نحو الشمال لأنه المنفذ الوحيد لهم اذ البحار تكتنفها من جهاتها الثلاث فسلكوا سواحل خليج فارس حتى نزلوا العراق . ثم توغلوا في شمال سورية ثم في جنوبها حتى وصلوا الى بلاد الحبشة . وقد تغلبت جماعات الساميين في برهة الفي سنة على جميع سكان تلك البلاد حتى اصبحت سامية اللغة كما عرفها التاريخ . ونشأ من مزيج هذين العنصرين عهد جديد يمتاز برقيه ومدنيته . وتفرق هذا المزيج

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بطوف الزمن الى شيع وشعوب عرفنا منهم منذ الالف الثالثة قبل الميلاد الآشوريين والبابليين في العراق والكنعانيين في فلسطين والاراميين في سورية الداخلية والفينيقيين في سواحل لبنان والعرب في جزيرة العرب فاصبح لكل منهم حضارة ولغة يتنازعون بينهم السيادة رغم انهم يمتون جميعاً الى أرومة واصل واحد .

وما هجرة بني اسرائيل من صحراء التيه الى فلسطين وغزوات العرب في صدر الاسلام للبلاد الدانية والقاصية سوى مثال قريب العهد لتلك الموجات البشرية التي غشيت البلاد . ولم ينس هؤلاء الشعوب رغم تقادم العهد على استيطانهم هذه البلاد أنهم دخلاء . فيؤكد المؤرخون الاقدمون أن الفينيقيين جاؤا من جزيرة العرب وروى (هردوتس) Herodote المؤرخ اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد أنهم انحدروا اليها من سواحل البحر الاحمر ويقول استرابون (Strabon) إن أصلهم من خليج فارس كما كانوا يدعون . وكذلك يتذكر الكنعانيون نزوحهم من مدينة اور من بلاد أشور في سني الالفين قبل الميلاد . وان تكن هذه الشواهد حديثة العهد بالنسبة للحوادث التي سردناها غير انها تشير بوضوح الى اتصال أخبار السلف بالخلف والشعوب السامية اكثر الشعوب تمسكاً بانسابها وحفظ أخبارها ، وقد برهن العلم الحديث على فائدة هذه الروايات لاستنتاج الحقائق منها وهكذا وصل الينا غيرها من الأخبار . أذكر منها روايتي الطوفان وسيل العرم . فقد عثروا في خرائب نينوى من بلاد أشور على وثيقة تاريخها من نحو (٢٢٠٠) سنة قبل الميلاد اي قبل هجرة ابراهيم عليه السلام بمئتي سنة وفيها وصف لطوفان اتصل بهم خبره وخلاصته : انه كان « انكي » (Enki) آله الماء وزوجته نينلا (Ninella) يحكمان البشر والسعادة سائدة في العالم والانسان بمأمن من الموت والأمراض والآفات فنقم انكي (Enki) على عباده لمخالفتهم تعاليمه وعزم على إبادتهم بطوفان فدعى احد عباده الصالحين واسمه اوتو (Uttu) وأمر اليه بالأمر وطلب منه ان ينجو بنفسه على سفينة وهكذا كان الأمر فهلك جميع البشر الا صاحبه أوتو (Uttu) فتناسل منه البشر ثانية ولكنه حرم البشر السعادة التي كانوا يتمتعون بها من قبل وقدر على الانسان ان يسعى ليعيش وعرضه للامراض واخطار الفناء . وهكذا خرج الانسان بذنبه من النعيم الى الجحيم ، وما أشبه هذه الرواية بطوفان سيدنا نوح . وقد اتصل بسكان جزيرة العرب حادث آخر وهو سيل العرم وليس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا السيل الا احدى الكوارث الآنفة الذكر لأنه لا يُعقل ان يكون في بلاد سبأٍ سدٌ يجمع هذا المقدار من الماء وخصوصاً مياه جزيرة العرب قليلة شحيحة . والأرجح ان العوامل التي دحرت الانسان القديم من الشمال الى الجنوب هي نفسها التي أرغمت جماعات جزيرة العرب على ان يهجروا بلادهم الى الشمال . وما سيل العرم الا طوفان حصل لما اشتدت حرارة الهواء في العصور القديمة فأذابت الثلوج المتراكمة منذ ألوف السنين في قمم جبال جزيرة العرب ومرتفعاتها فهكذا كان سيل العرم في بلاد سبأٍ فتفرق سكانها في كل البلاد أيدي سبا .

وقد دامت هذه الحوادث التي استعرضناها في اسطر عشرات الالوف من السنين كان يتدرج الانسان خلالها نحو الرقي وساعده على ذلك استقرار حالة الارض الطبيعية في الالف العاشرة فثابر على خطة الابتكار والعمل اتباعاً لسنة تنازع البقاء فتوفرت لديه المعدات وجعل لنفسه مسكناً ونسج ملابسه واستخدم الحيوان واستثمر الارض أصبح صانعاً وفناناً وفلاحاً بعد ان كان الوفاً من السنين متشرداً صياداً فانتقل في آخر العهد الحجري من البداوة الى الحضارة فصار قسم منهم يتعهد الارض وقسم يعتني بتربية المواشي وهكذا تكون صنفان من البشر بدو وحضر . رعاة ينتقلون بمواشيهم من بقعة الى بقعة ارتياداً للماء وانتجاعاً للكلأ وفلاحون يقيمون بمزارعهم يعملون في الارض ويستغلونها .

وقد ابقت لنا جماعات عصور قبل التاريخ كثيراً من آثارهم في سورية وجدت في الكهوف التي كانو يأوون اليها او في قبور موتاهم ويمكن منها تتبع رقي الانسان وتدرجه في الحضارة . وليست هذه الآثار تماثيل ونقوشاً او اواني نفيسة . بل هي شظايا من الظران والصوان المنحوت والمصقول او عظام حيوانات زينتها ايدي الصانع او خزف بسيط وقبور تلك الشعوب البائدة وهذه الآثار كانت صنعتها تتحسن كلما اقترب الانسان من العهد التاريخي . ورغم قلة المشتغلين من العلماء بعصر قبل التاريخ في سورية فقد اهتدوا الى اماكن عديدة وجد فيها من آثار ذاك الانسان في عدلون . ونهر ابراهيم . وانطلياس . ونهر بيروت . وطرابلس . ونبع نهر الكلب والمعاملتين . وتبنه . والبقيعة . وتمناك . ومجدو . والكرمل . واذرعات . وجرش . وعمان . والكرك . ووادي موسى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والقدس . وفي الفلاة الممتدة من جيرود حتى دير الزور وفي كثير من الاماكن في سورية الشمالية .

وطال امد العهد الحجري في سورية اكثر منه في مصر والعراق ولهذين القطرين فضل كبير في تحضير جماعات سورية والعالم اجمع . فقد شيدا بين سنة (٤٠٠٠ و ٣٠٠٠) قبل الميلاد عمرانًا عظيم الشأن بينما كانت سورية وبقية العالم تتخبط في ظلمات الجهل والامية وقد ارتقت سورية الى مصافهما في الالف الثالثة قبل الميلاد لما تقوى عليها العراق وحمل اليها معارفه ومكتشفاته واهمها المعادن والكتابة . والعصر التاريخي ينتهي في كل امة من يوم وقوف اهلها على الكتابة لتسجيل اخبارهم وتدوين وقائع عصرهم . وقد دفعت سورية ثمنًا باهظاً لحصولها على حضارة مجاوريها وهذا الثمن هو حرمانها استقلال جماعاتها . فمنذ ذلك التاريخ وسورية تنتقل من يد مسيطر الى آخر حتى يومنا هذا . وكأن موقع سورية الجغرافي وخصب ارضها وكثرة غاباتها هو سبب بلائها فهي حلقة الاتصال بين الغرب والشرق ومنفذ لكليهما . فمنها كانت تستورد مصر والعراق مايعوزهما من الخشب لبناء دورهم وصنع عمارتهم البحرية .

وكانت سورية في أكثر ادوارها التاريخية ساحة حرب يتنازعها العراق ومصر ويطمع بها الحثيون واليونان والفرس والرومان كما جاءها العرب والترك من بعد . وقد ترك كل من هذه الشعور اثراً من حضارتهم وعوائدهم . ولا يمكن معرفة تاريخ سورية الا بالرجوع الى وثائق تلك الشعوب ورقمها وقد امتزج تاريخ سورية بتاريخ هذه الشعوب ولا يمكن عزله عنه لعلاقته بحوادث الامم التي كانت تدين لسلطانها . ولذلك نرى في سورية مدنية ظاهرها مزيج من مجموع حضارات مختلفة يتعذر لأول وهلة تمييز بعضها عن بعض وتتبع سير تطورها . ومع ان هذا الدور يدعى بالعهد التاريخي فهو بالحقيقة اعقد مما سبقه من الادوار على كثرة المصادر والوثائق . وقد اصبح في سورية من جراء هذه التجزئة والمنازعات السياسية دويلات مختلفة بلغاتها وعوائدها وعقائدها اهمهم الكنعانيون والاراميون والعموريون والفينيقيون وكثير غيرهم من طوائف حدود سورية الشرقية والجنوبية . وقد خضعت هذه الدويلات لسلطة الآشوريين والبابليين والمصريين والحثيين وفارس واليونان والرومان . وكانت دمشق أقوى ممالك الاراميين . ويتعذر على المؤرخ ان يسرد حوادث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كل من هذه الأدوار لو لم يسعفه الأثري ويرشده في هذا المسلك الوعر .

وحوالى سنة (٢٠٠٠ ق . م .) كان هؤلاء الساميون بلغوا درجة من الحضارة لا يستهان بها . معظمها مستمد من مصر وبابل . وقد شغف الفينيقيون بحب البحر ومهروا بعلم الملاحة حتى سيطروا على البحار والأسواق التجارية في جميع سواحل البحر المتوسط فحملوا سلعهم وتعاليم الحضارة الشرقية الى اقصى بلاد افريقيا الشمالية واسبانية وجنوبي فرنسا وجزر صقلية وقبرص و كريت وقداستوطن هذه البلاد جماعات من الفينيقيين وأسسوا فيها حكومات كان لها شأن عظيم في التاريخ .

ولم يبق لنا الزمن الا النذر اليسير من آثار شعوب سورية السامية في العصور القديمة لأن اسلافنا كانوا يبنون بيوتهم وهياكلهم من الطوب المجفف بالشمس كما هو الحال حتى اليوم في بعض المدن والقرى السورية ولا يخفى ان هذا النوع من البناء لا يعمر طويلاً فتنهار البيوت برمتها فيعمد أصحابها الى بناء غيرها على أنقاضها وجرى الناس على هذا الأسلوب من البناء قروناً متوالية تكونت منها تلال اصطناعية وهذه التلال تُعد بالمئات في سورية : كتل أريحا في فلسطين وتل الصالحية في الغوطة وتل الدرخبية في وادي العجم وتل النبي مندو وتل المشرفة بجوار حمص وتل جرابلس على الفرات وقد حفظت لنا الأيام في بطن هذه التلال والقبور كثيراً من الآثار التاريخية المهمة ، وقد عثر المنقبون على كثير من تواريخ الأسر والرسائل والصكوك والحسابات والمذكرات وغيرها من الرقم ووجدوا ايضاً كثيراً من الأثاث والأواني الجميلة المزخرفة والرسوم المنقوشة . واما البنايات الأثرية القديمة مثل بعلبك وجرش وتدمر وغيرها فهي من العهد الروماني فقط ولكنها شيدت على أنقاض هياكل ومدن أقدم منها عهداً .

ولقد تبين من الحفريات التي أُجريت في سورية ومن الآثار التي اكتشفت فيها — ان آثارها تختلف عما وجد في البلاد المجاورة لها ولا يرجى ان نعثر في هذه البلاد على آثار تُثير بجسامتها إعجاب العامة قبل الخاصة كما هو شأن آثار مصر وأشور والفرس . والسذاجة في الصناعات تغلب على السوريين منذ القديم وهذا ناشئ عن طبائعهم ومعتقداتهم فالسوري في جميع أدواره التاريخية يميل الى الساذج وهذا يظهر في صناعاته وفلسفته الدينية وتتجلى في هذه البساطة مواهب السوري الفنية فقد جمع بين الساذج والجميل فأحسن الصنع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأبدع . ونقل الآثار المنقولة النفيسة التي اكتشفت في سورية بالنسبة الى ماوجد في غيرها من البلدان المتجاورة . وهذا القليل يشهد ببراعة الصانع السوري وذوقه السليم وهو ذو مكانة بين أقرانه من فناني بقية الشعوب . وليس معنى قلة العاديات عدم انتشارها في البلاد بل لانها لم تتصل الينا لاسباب وعوامل شتى . اولاً : لأن اكثر تربة سورية رطبة لاتحفظ مايودع فيها . وثانياً : لأن السوريين قلما يودعون مدافن موتاهم نفائسهم كما هو شأن المصريين وغيرهم من الأمم القديمة بل يكتفون بالاشياء البسيطة كقوارير الشبه أوالخزف وشيء من أدوات الزينة من الفضة أو النحاس أو الذهب أو قطع سلاح واذا أضفنا الى خلو القبور من الأعلاق ماقد كتبه اشمو نزار ملك صيدا على تابوته مخاطباً به نباشي القبور ناصحاً لهم بان لايهتكوا حرمته مؤكداً أن لاذهب في قبره ولا فضة — تدرك كون سرّ ندرتها بين أيدينا فاذا كان هذا حال ملوكهم فما بالكم بالرعية . وخلو القبور منها هو حجة لسورية لا عليها ودليل على سمو عقيدة سكانها ونضج فكرتهم منذ القديم . لأن السوري كبقية الشعوب السامية يغلب عليه الاعتقاد بان الجسم مادة تتلاشى مع الزمن ليست جديرة بالاكرام الذي يبالغ به غيرهم من الشعوب ومع هذا فقد انتشرت في سورية عادة وضع بعض الاشياء في القبور وذلك بمؤثرات خارجية واقتباس عادات الغالب لأن سورية كانت في أكثر أدوار تاريخها خاضعة لسلطان أجنبي كما ذكرنا آنفاً .

سورية مهد ثلاث ديانات يدين بها اليوم معظم البشر وهذه الديانات لم تكن ابنة ساعتها بل هنالك عوامل مهدت لها السبل مدة قرون عديدة قبل ظهورها ويهم العالم أن يعرف تطورها قبل نشوئها وهذا مايزيد في مكانة آثار سورية ويجعل اقبال العلماء عليها اكثر من سواها لعلاقتها الكبيرة بنظامنا الاجتماعي الحاضر . وقد أدركت جمعية الامم هذا الامر واحتاطت له خوفاً من المزاحمة او استئثار دولة بهذه الآثار دون سواها . ولذلك اشترطت في المادة الرابعة عشرة من صك الانتداب ان يكون النظام الذي سيوضع لحماية العاديات مستمداً روحه مما يدعو الى التنشيط اكثر منه الى التثبيط كما انها اشترطت على الحكومة المنتدبة عند منحها إجازات بالحفران لاتتصرف بشكل يرمي الى حرمان علماء أي شعب كان من تلك الإجازات دون أسباب موجبة .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آثار سورية ٠ — ان معظم البنايات الاثرية التي نعرفها اليوم ويؤمها الزائرون من جميع أنحاء العالم مثل بعلبك وتدمر وجرش وبصرى الشام ومادبا هي حديثة العهد بالنسبة لقدم حضارة سورية ويغلب عليها تأثير الفن اليوناني والروماني والبيزنطي وقد ثبتت هذه البنايات على طوارئ الايام لان بناءها من الحجر الصلب المنحوت بخلاف البنايات التي قبلها فقد درست لانها كانت من الطوب المجفف وهذه البنايات هي معابد وهياكل ومدن لها شهرة عالمية لانها بالحقيقة احدى معجزات الفن المعماري وهي في غنى عن كل وصف وقد برع السوريون بالبناء وكانت روما تستدعيهم لتشييد بناياتها العامة ٠

وفي سورية بقايا بنايات أثرية لها أهمية تاريخية عظيمة منها منبج من أقضية حلب وقد أطلق عليها اليونان اسم (Hierapolis) نسبة لأيراه (Aera) المعبود الأشوري وجاء اسمها (Mappigu) في الوثائق الاشورية وفي هذه البلدة أقدم معبد سوري وكانت هذه المدينة مقدسة يقصدها الحجاج من جميع انحاء سورية وقد كتب لوسيانوس المؤرخ الاشوري الاصل كتاباً في هذا المعبد وطقوسه الدينية وشعائره وحكاية بنائه وأسبابها ونسب بناءه الى (Stratonice) زوج ملك أشور ٠ كما انه عقد في كتابه فصلاً في قدم مدينة جبيل الواقعة على طريق بيروت — طرابلس ووصف عبادة اهلها لأدونيس آله الانتاج وقد أبدت الحفريات الأخيرة قدم هذه المدينة فقد عثروا فيها على معبد قديم وجدوا تحت بلاطته عدداً من الاواني والادوات زبر على بعضها اسم الفرعون (Mycerenus) من السلالة الرابعة وباني احد اهرام مصر الكبيرة بين سنة (٢٩٠٠ و ٢٧٥٠) قبل الميلاد واسم الفرعون (Ounas) من السلالة الخامسة واسم (Pepi II) الثاني من السلالة السادسة ووجدوا ايضاً غيرها من الادوات المصرية أحدث عهداً من الاولى وهذا يؤيد علاقة مصر بالفينيقيين قديماً وكان المصريون يطلقون اسم (Keben) على مدينة جبيل حتى في عهد السلالة الثانية عشرة وذكرت بهذا الاسم في الرقم المصرية منذ سنة (٣٠٠٠) قبل الميلاد وكان المصريون يستوردون من جبيل الخشب اللبناني لصنع سفنهم وربما كانوا يصنعونها في نفس مدينة جبيل وقد أطلق المصريون اسم (Kebenit) على اسطولهم الضخم نسبةً الى (Keben) وهي جبيل كما ذكرنا ٠ وقد عثروا ايضاً على بعض مدافن ملوك جبيل وأمرائها منهم أحرام المتوفى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقد نقشت على جوانبه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صورة الملك يتناول القرابين من أتباعه وبعض الشعائر الدينيـة وهو قائم على اربعة اسود ومما يزيد في شأن هذا الأثر الكتابة الفينيقية التي زبرت عليه وهي أقدم كتابة أبجدية عرفت حتى اليوم وهذه ترجمتها « عمل هذا الإران (اي التابوت) إفسْبعل بن أحرام ملك جبيل لابيه كي يكون مقره الأبدي فاذا ناصب ملك من الملوك أو حاكم من الحكام العداء لجبيل وأخرج هذا التـابوت من تحت البلاط فيكون خاتور خصمه فيدك عرش ملكه ويعم الخراب جبيلاً فيما اذا محا هذه الكتابة ٠٠٠٠٠٠) وآثار جبيل هي أهم ماعثر عليه حتى اليوم في سورية من الوجهتين الفنية والعملية ويحق لمتحف بيروت أن يفاخر بها ٠

ومن اعجب ما ذكره لسيانوس المؤرخ عن عبـادة اهل جبيل لأدونيس أنهم كانوا يزعمون ان أدونيس هذا خرج للصيد في جبال لبنان فوثب عليه خنزير وافترسه عند نبع نهر ابراهيم حيث نرى الى الآن نقوشاً ورسوماً تشير الى هذا الحادث وقد اطلقوا على هذا النهر اسم أدونيس تخليداً لذكر معبودهم ٠ ولكن موت أدونيس لم يكن ابدياً بل كان يموت في فصل الخريف من كل سنة ويبعث في ربيعها وكانوا يقيمون في ربيع كل سنة مأتماً عليـه تلبس نساؤهم ثياب الحداد ويجلن في شوارع جبيل باكيات يضربن صدورهن ويشققن جيوبهن حزناً عليه ولكن في اليوم الثـاني ينقلب الترح فرحاً اذ يُبعث أدونيس ويرتفع الى السماء فتقام في المدينة معالم الزينة والسرور فيحلق النساء شعور رؤوسهن ومن لا تقدم على هذه التضحية تكفر عن سيئتها بإباحة جمالها لكل طالب طول هذا اليوم ويخصص ريع هذا العمل الشائن لأعمال البر والتقوى ولم يكن هذا العمل الفظيع يستنكر عندهم بل اللواتي يقدمن عليه ينلن حظوةً كبيرة لدى مواطنيهم ٠ وكان الفينيقيون يعدون اعمال العهارة والفجور اعمال تيمن يتقربون بهـا الى اربابهم ٠ وقد عثر المنقبون على عدد من الكهوف التي كانت تجري بهـا مثل هذه المخازي في بلاد فينيقية ٠ ومن الاعمال التي كانت تقشعر لها الجلود عادة تقديم الضحايا البشرية فكان كل منهم يقدم ابنه البكر ضحية لاربابهم ليحصل على بركتهم او دفعاً لخطر داهم وهذه العادة الفظيعة قديمة جداً في سورية وقد دامت حتى العهد الروماني ٠ وبنو اسرائيل هم اول من استفظع هذا الامر وحرموه واستعاضوا عنه بالختان وهو فداء الكل بالجزء ٠

وفي دمشق اثر لا يقل مكانة عن غيره وهو الهيكل بالأمس او جامع بني أمية اليوم ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونرى كثيراً من الكنائس والجوامع شيدت على انقاض هياكل ومعابد قديمة . وتبدأ أقدم معلوماتنا عن هذا الهيكل من القرن العاشر قبل الميلاد الى العهد الذي تلاشت فيه الوثنية من هذه البلاد وكان يعبد فيه الاله (Hadad) او (Ramman) ورفيقته (Atargatis) . وحداد هذا عند الاراميين بمنزلة (Jupiter) و (Zeus) عند اليونان والرومان وقد ورد ذكر هذا المعبد مرتين في التوراة في حديثه عن شفاء نعمان وكانت شهرة هيكل دمشق عاصمة مملكة ارام عظيمة جداً حتى ان اخاز (Achaz) ملك بني اسرائيل لما جاء الى دمشق للسلام على (Tiglat Pileser) ملك اشور دهش من معبدها واخذ مقياس مذبحها لكي يبني مثله في بيت المقدس وهيكل دمشق هو في سورية الوحيد الذي احتفظ بهندسته القديمة رغم الطوارئ التي نزلت به والايدي التي تعاقبت عليه وتقسم جميع المعابد السامية السورية الى قسمين: الحرم وهو مختص بالكهنة ولا يقصد الا في ايام الزيارات والقسم الخارجي وهو مباح للعوام . ونرى هذين القسمين واضحين حتى اليوم في هيكل دمشق والحرم هو المسجد الآن والقسم الخارجي هو السور الذي يحيط به ونرى احد ابوابه عند مدخل باب البريد واقدم آثار الهيكل جدران المسجد الخارجية الغربية والشمالية وهي على طراز بناء الجدر المصرية القديمة وقد تحول هذا الهيكل الى كنيسة في عهد (Théodose) في سنة (٣٧٩ — ٣٩٥) للميلاد وبقي كذلك حتى الفتح الاسلامي .

وقد كشفت الحفريات آثار قيمة في تل النبي مندو وهي قديش القديمة احد حصون الحثيين وثبت هذا الحصن طويلاً أمام هجمات المصريين حتى استولى عليه الفرعون سيتي الاول في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ودك حصونه وقد خلد انتصاره بنصب محفوظ في متحفنا نقش عليه رسم الفرعون يتناول القرابين من ارباب وارباب الحثيين المغلوبين . وقد عثر الكونت (De Mesnil) منذ سنوات على مدينة قطنا القديمة في تل المشرفة قرب حمص وهذه المدينة كانت زاهرة في القديم فعثر فيها على قبور ملوكها ووجد فيها آثار لها شأن تاريخي عظيم يرجع معظمها الى النصف الاول من الالف الثانية قبل الميلاد . وفي شمال سورية كثير من المدن التي سكنها الحثيون زمناً طويلاً وسيكون لآثار هذا الشعب المجهول مكانة عظيمة متى حلت رموز رقمه وفهمت لغته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يمكننا في ساعة واحدة الا التلميح الى آثار سورية اذ كل أثر منها يستغرق ساعات . وقد سبقنا الغربيون وكتبوا المجلدات عنها فاليهم يرجع الفضل بكشف هذا الماضي المجيد . وآثار سورية هي أحق بعناية أبنائها فتعود علينا بفوائد مادية وأدبية لا تقدر .

جعفر الحسني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net